الافتتاحية

النَّفسُ الإنسانيَّةُ في أبْعادِها القُرآنيّة: جَدَليَّةُ الروحِ والجسد

رئيس التحرير
د. محمد محمود مرتضى

يشهد الحقل المعرفي المعاصر توسّعًا لافتًا في دراسات النفس، من علم النفس الإكلينيكي إلى علم النفس المعرفي، وصولاً إلى علوم السلوك والظواهر العصبية. وقد أدّى هذا التوسّع، على ضخامته، إلى ظاهرة لافتة تمثّلت في تعدّد المقاربات وافتراقها بدل اجتماعها؛ إذ صار لكلّ مدرسة تصوّرها الخاصّ للنفس ولطرائق علاجها، ما كشف عن غياب الإطار المرجعي الموحّد الذي يمكن أنْ تختبر فيه هذه النظريّات نفسها وتنتظم ضمنه. وهذا يدلّ على أنّ الحقل النفسي رغم تقدّمه الظاهر ما زال يبحث عن مركز يضبط اتجاهاته. لكنّ هذا الاتساع جرى، في أغلبه، داخل أطر فلسفية مخصوصة، تشكّلت تاريخيًّا ضمن مسار الحداثة الغربية؛ حيث جرى تعريف الإنسان بوصفه ذاتًا مغلقة على خبرتها الفردية، وجرى تفكيك العلاقة بين الروح والجسد، وتحديد النفس بخصائص وظيفية، أو بنى لغوية، أو سيرورات عصبية.

وقد يكون أخطر ما ترتّب على ذلك، أنّ الإنسان لم يعد يُرى بوصفه كائنًا ذا طبيعة مزدوجة تسكنه الروح والجسد معًا، بل بوصفه آلة بيولوجية متطوّرة، أو كائنًا لغويًّا تتحكّم فيه البنى الاجتماعية. وبذلك، غاب عن الوعي النفسي المعاصر البعد القدسي في تكوين الإنسان، وتآكل شعور الإنسان بعمقه الروحي، وأصبح تفسير الظواهر النفسية رهينًا بالمختبر، والعصب، والكيمياء.

وهنا يتبدّى النقص المنهجي العميق في هذه المقاربات؛ إذ هُمِّش البعد الخُلُقي، وفُصل الإنسان عن غايته، وخضِعت التجربة النفسية لمنطق الاختزال العلمي الذي يجرّدها من بعدها الوجودي الأصيل. ولا أعجب بعد هذا أنْ تتفاقم الأزمات النفسية في المجتمعات الأكثر تقدّمًا من الناحية التقنية؛ فالانقطاع عن الغاية يترك الإنسان في فراغ داخلي، مهما ازدادت قدرته على تفسير وظائف الدماغ، أو قياس مؤشّرات الهرمونات.

ومن هنا، بدا أنّ التفسير النفسي المعاصر، رغم قدرته على رسم خرائط دقيقة للعقل والسلوك، لا يلامس الجذور العميقة لأزمة الإنسان المعاصر: فالسؤال الذي يضطرب فيه الإنسان ليس سؤال السلوك فقط، بل سؤال الغاية، وهو سؤال لا تستوعبه الأدوات العلمية البحتة مهما بلغت دقتها.

ومن هنا، يتبين أنّ أي مشروع لتجديد فهم النفس ينبغي أنْ يبدأ من نقد هذا الأساس الفلسفي نفسه، لا من ترقيع نتائجه. وبمجرّد إعادة النظر في ماهية الإنسان، وفي جهات اتصاله بالعالم وبالخالق، تتبدّل الصورة كلّها، ويفتح باب جديد لفهم الظواهر النفسية خارج حدود المختبر، وحدود التجربة المنعزلة.

في المقابل، يفتح القرآن الكريم أفقًا معرفيًّا مختلفًا جذريًّا، يؤسّس لرؤية متكاملة عن النفس الإنسانية، تجمع بين الروح والجسد، وبين الفطرة والتكليف، وبين الحرية والمسؤولية، وتقدّم الإنسان بوصفه كائنًا يتحرّك في مدارج الوعي من خلال علاقة دائمة بالله، لا علاقة منقطعة عن المصدر.

يكشف القرآن عن حقيقة النفس في سياق تكريمي يربط الإنسان بأصل خلقه وهدف وجوده ومآله الأخير. فحين يخاطب القرآن النفس، فهو يتعامل معها بصفتها جوهر الإنسان ولبّه. فالنفس هي المستودع الذي تُزرع فيه بذرة الهداية، ومنها تتفرّع كلّ انفعالات الإنسان، وسلوكيّاته، وقراراته التي تشكّل في مجموعها طريق الإنسان في الحياة. ومن هنا، يضع القرآن معالم المعرفة النفسية ابتداء من التكوين الإلهي: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧-٨].

يختصر هذا التعريف كلّ ضجيج النظريات المتصارعة. فالإنسان يحمل في داخله استعدادين متقابلين، وقيمته تكمن في توجيهه لهذين الاستعدادين ضمن معيار الهداية.

وهذه الرؤية ليست "بديلاً دينيًّا" لعلم النفس الحديث، بل أساسًا معرفيًا ومنهجيًا يعيد تعريف النفس قبل معالجة ظواهرها؛ لأنّ العلم الذي لا يُحسن تعريف موضوعه، لن يُحسن تفسيره ولا تقويمه.

أولاً: إشكالية علم النفس الغربي وهيمنة النموذج المادي

تشكّل علم النفس الغربي في سياقٍ اعتمد على الفصل الجذري بين العلم والميتافيزيقا، في محاولة لتحرير البحث النفسي من هيمنة الكنيسة في القرون السابقة. لكنّ هذا التحرير تحوّل إلى قطيعة تامّة مع البعد الروحي والخُلُقي للإنسان. فالنفس في أغلب النماذج الغربية، اختُزلت إلى معادلات سلوكية واستجابات عصبية، وباتت الذات مجرد «دماغ يمشي على قدمين».

ومع صعود السلوكية، أصبح الهدف علاج السلوك المخالف للمعايير الاجتماعية، لا تحرير الإنسان من أزماته الداخلية. ثمّ جاءت الهيمنة البيولوجية لتحوّل الاضطراب النفسي إلى «خلل كيميائي في الدماغ» يُعالج بوصفة دوائية، كأنّ الإنسان مجرّد مستقبلٍ لكبسولات تعدّل مزاجه. لقد حُجب السؤال الجوهري: لماذا يتألّم الإنسان أصلاً؟ وجرى استبداله بسؤال آخر سطحي: كيف نوقف الألم، ونُسكت الصوت الداخلي دون أن نفهمه؟

تحت هذا المنظور، تحوّلت صناعة الدواء النفسي إلى واحدة من أكثر الصناعات ربحًا في العالم؛ حيث مارست شركات كبرى ضغوطًا مباشرة على المؤسّسات الصحية والباحثين والأطباء، لتوسيع رقعة التشخيص، وإنتاج اضطرابات جديدة قابلة للتسويق، فجرى الترويج لأدوية كبرى، باعتبارها «مُخلّصًا علميًّا من القلق والاكتئاب»، قبل أن تُكتشف فضائحها لاحقًا: بيانات مخفية عن آثار جانبية خطيرة، تضارب مصالح بين الباحث والمموّل، ونتائج سريرية غير شفافة. في

الوقت نفسه، يتضاعف استهلاك مضادّات الاكتئاب عامًا بعد عام، بينما تتضاعف معه نسبة الاكتئاب والانتحار. وهي مفارقة تكشف أن ما يجري علاجه ليس الجذر بل العَرَض.

كما أنّ علم النفس الغربي أصبح جزءًا من آليات السيطرة الاجتماعية. ففي أماكن العمل يُستخدم لتحسين الإنتاجية وضبط السلوك. وفي الدعاية يُستخدم لتوجيه القرارات الشرائية وصناعة الحاجة. وفي الإعلام، يُستخدم لتطويع العواطف وحرف الانفعالات نحو مسارات تُناسب مصالح الأقوياء. إنّ علمًا يتجاهل سؤال الحرية الحقيقية ويستبدله بسؤال الضبط، يتحوّل تدريجيًّا إلى أداة لخلق إنسان "مطيع" ضمن منظومة الاستهلاك.

وحتى حين عاد بعض الباحثين للحديث عن الروحانيات، جاءت هذه العودة منقوصة. فقد أفرغت الروحانية من بُعدها الغائي، وتحوّلت إلى تقنيات للهدوء، وتنظيم التنفس، وتمارين إنقاص التوتر، دون إشارة إلى الله أو المسؤولية الخُلُقية أو الغاية من الحياة. فصارت الروحانيات منتجًا استهلاكيًا يُباع في دورات تدريبية وكتب تطوير الذات، بلا جذر تتغذّى به، ولا سماء تتجه نحوها.

فمن الواضح أنّ الأزمة ليست في الأدوات، وإنما في الفلسفة المؤُسِّسَة. وهكذا، انطلق النموذج الغربي من الإنسان ليُعيده إليه، وجعل الذات مرجعية ذاتها، فوقع في دائرة مغلقة؛ حيث يعيش إنسانه لأجل سعادة فردية لحظية، ومع ذلك يزداد قلقًا كلّما اقترب من تحقيق ما يريد؛ لأنّ سعادته بلا هدف، وحريّته بلا معنى، وألمه بلا أفق.

لا شكّ أنّ التجربة الغربية قدّمت إنجازات بحثية وعلاجية لا يمكن تجاهلها. لكنّها في الوقت ذاته استسلمت لهيمنة السوق، فصار «العلاج» تجارة، و«الاضطراب» سوقًا مفتوحة، و«النفس» سلعة تبحث عن مشترٍ. وحين يفقد الإنسان اسمه ويُختزل في «مريض» تُحتاج حالته إلى «عقار»، يصبح الألم فرصة للربح، وهذا يكشف خللاً عميقًا في علاقة الإنسان بوجوده وربّه.

لهذا، تبرز الحاجة إلى بديل معرفي يعيد الإنسان إلى محوره الطبيعي: محور الغاية والقيمة.

ولا يُنكر العلم ولا يخاصمه، وإنّما يضعه في مكانه الصحيح. وهذا البديل هو ما يسعى علم النفس القرآني إلى تقديمه؛ رؤية تنظر إلى النفس على أنّها أمانة وهداية، لا مجرّد معادلة كيميائية أو مشروع إنتاج مدرٍّ للأرباح.

ثانيًا: النفس بين الخلق والتسوية - تأسيس قرآني للهوية الوجودية

يقدّم القرآن تعريفًا تأسيسيًا للنفس يبدأ من لحظة الخلق: ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]

فالنفس هي كيان مُهيّأ بالتسوية، وموزون بالعدالة الوجودية، وموجّه نحو التكامل.

وتكشف هذه الآية أنّ جوهر الإنسان هو أصل مقصود في الخلق. فالخَلق هنا ليس بداية وجود فقط، وإنما بداية بنية، والتسوية ليست إكمالاً للشكل فقط، وإنّما ضبطًا للوظائف والتوجّهات؛ بحيث تتناسب مع الغاية التي خُلق لها الإنسان.

يجعل هذا التأسيس "الصحة النفسية" نتيجةً للتوازن بين الجسد والروح، وبين الفطرة والشرع، وبين الحرية والغاية.

وفي هذا السياق، يصبح الإنسان في المنظور القرآني مشروعًا إلهيًّا محكومًا بالتسوية. ومن هنا، يصبح الخلل النفسي خللاً في الانسجام بين هذه المكوّنات التي سوّاها الله. ومن اللافت أنّ القرآن يربط بين فكرة التسوية وفكرة التوجيه، فالإنسان لم يُخلق مجرّد جسد سليم، وإنّما نُفخ فيه من الروح، ما يجعل "الاشتباك بين الروحي والجسدي" جزءًا من تكوينه الطبيعي، لا عارضًا خارجيًّا.

وإذا كان علم النفس الحديث يحصر "التوازن" في الانسجام البيولوجي أو السلوكي، فإنّ القرآن يوسّعه ليشمل الانسجام الروحي والمعنوي؛ لأنّ النفس لا تستقيم إلا حين تتوازن دوافعها

وغاياتها وتلتقي على محور التوحيد. ولهذا، كان فقدان المعنى أصلاً لكثير من الاضطرابات الحديثة، مهما اختلفت مسمّياتها.

وتتجلّى عظمة هذا التأسيس في قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ [الشمس: ٧]؛ حيث يُنسب فعل التسوية مباشرة إلى الله، بما يعني أنّ أي علم نفسٍ لا يستحضر هذه التسوية الإلهية، سيبقى قاصرًا عن فهم جوهر الإنسان.

وهذه الإحالة الإلهية المباشرة تمنح علم النفس القرآني مدخله الجوهري: إنّ علاج النفس لا يمكن أن يكتفي بالظاهر، بل يجب أنْ يخاطب التوازن الداخلي الذي أودعه الله فيها. ومن هنا، نفهم لماذا لا تُشفى بعض الحالات رغم العلاجات السلوكية المتقدّمة؛ لأنّها تعالج الأطراف وتترك الجذر.

ثالثًا: مدارج النفس: صراع داخلي أم حركة تكاملية؟

يقدّم القرآن مستويات للنفس، أشهرها: الأمّارة واللوّامة والمطمئنّة، لكنّ هذه المستويات ليست «تصنيفات ثابتة» بقدر ما هي مدارج حركية تعكس دينامية النفس.

وهذه الدينامية تكشف أنّ النفس تُعرَف باتجاهها العام؛ فمن كانت نفسه أمّارة قد تصبح لوّامة، ومن كانت لوّامة قد تصبح مطمئنّة، ما دام القلب قابلاً للعودة والترقّي. وهذا في ذاته يفتح باب الأمل، ويجعل العلاج عملية مستمرة لا توقّف فيها.

فالنفس الأمّارة ليست شرًّا مطلقًا، بل حالة انفعالية، تُفتح فيها شهية الشهوات: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

بينما النفس اللوّامة هي ضمير حيّ يُعيد الإنسان إلى مسار التصويب: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢].

أما النفس المطمئنة فهي غاية السير الوجودي:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]

والمتأمّل في هذه المدارج، يدرك أنّ القرآن لا يتعامل مع النفس باعتبارها كيانًا منقسمًا في داخله — كما تفعل بعض المدارس التي تجعل الصراع هوية الإنسان — وإنما باعتبارها كيانًا قادرًا على الترقّي. فالأمّارة ليست "عدوًّا" للإنسان، بل محطة من محطات الاختبار، واللوّامة ليست علامة ضعف بل دليلَ وعي، والمطمئنّة ليست نهاية المطاف بل بداية الدخول في مقام الرضا. وهذا الفهم الحركي، يجعل علم النفس القرآني علمًا يقود الإنسان نحو تكامل داخلي، لا نحو إدارة صراع دائم مع ذاته.

تؤسّس هذه المدارج التربوية لعلم نفس يقوم على ترقية النفس، وفتح آفاق الطمأنينة لها عبر التكليف والذكر والارتباط بالله.

ومن هنا، يغدو العلاج القرآني علاجًا يقود إلى الرفعة، لا إلى العودة إلى "وضع طبيعي" سابق؛ لأنّ الطبيعي نفسه قد يكون مشوّهًا، إذا ابتعد الإنسان عن فطرته.

رابعًا: الفطرة - البعد الغائب في علم النفس التجريبي

من أعظم الإسهامات القرآنية في فهم النفس، بيانُ أنّ الهوية الوجودية للإنسان قائمة على الفطرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. والفطرة بهذا المعنى هي مرجع ثابت تقيس النفس به صحّتها وانحرافها. ولهذا، كان المنحرف - في المنظور القرآني - هو من ابتعد عن فطرته، لا من خالف المجتمع فقط؛ لأنّ الفطرة هي الميزان الأول قبل أيّ عرف اجتماعي أو ثقافة بشرية. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين علم النفس القرآني والعلوم الوضعية. فالفطرة ليست "ميلاً بيولوجيًّا"، ولا "استعدادًا اجتماعيًّا"، وإنّما بنية معرفية - خُلُقية مودعة في الإنسان، تجعل القيم جزءًا من تكوينه، لا إضافات خارجية عليه. لذلك، حين ينحرف الإنسان، فإنّ انحرافه ليس "اختلافًا طبيعيًّا"، وإنّما خللاً في الانسجام مع الفطرة.

ومن اللافت أنّ القرآن يجعل الفطرة محرّكًا داخليًّا نحو الخير، لا مجرّد قابلية للتعلّم. وهذا ما يغيب تمامًا في النموذج التجريبي الذي يحصر الخير في الأعراف، أو في الصالح الاجتماعي. أما القرآن، فيرى أنّ النفس تحمل في أصلها قابلية التعرف إلى الحقّ، وأنّ الانحراف هو طارئ، وأنّ العودة إلى الفطرة هي مفتاح الشفاء.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في مواضع متعدّدة، أبرزها قوله تعالى: ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ [القيامة: ١٤]، وهو بيان واضح بأنّ المعرفة الخُلُقية مودعة في العقل البشري أصلاً. ولهذا، فإنّ علم النفس القرآني لا يسعى لاختراع معنى للإنسان، وإنّما لاكتشاف المعاني الذي زُرعت فيه يوم خُلِق.

وبذلك، يتبدّى لنا أنّ مقوّمات علم النفس القرآني تتشكّل من أربعة أعمدة:

١. مرجعية التوحيد: فالمعرفة بالله أساس توازن النفس وطمأنينتها.

٢. مركزية القيم الخُلُقية: فالسلوك ليس قابلاً للقياس وحسب، وإنّما للوزن بموازين النور والظلم.

٣. تكامل الروح والجسد والعقل والقلب: رفض الثنائيات التي تفصل بين مكوّنات الإنسان.

٤. البُعد الغائي والأخروي: إدراك الهدف يحوّل الصراع الداخلي إلى طريق خلاص.

إنّ هذا البناء يمنح علم النفس القرآني قدرة على الإجابة عن الأسئلة التي بقي العلم الحديث متردّدًا أمامها.

خامسًا: الصحة النفسية بوصفها انسجامًا مع الغاية

من منظور قرآني، يُقاس الاعتلال النفسي بمدى انقطاع الإنسان عن غايته، أي عن علاقته بالله،

وهو ما تشير إليه الآية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]

والضنك هنا ليس ضيقًا ظرفيًا، وإنّما حالة وجودية. وقد عالج القرآن هذه الحالة في سياقات متعدّدة، مؤكّدًا أنّ "اتساع الصدر" هو أثر المعرفة بالله، وأنّ "الضيق" هو أثر البعد عنه: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾[الأنعام: ١٢٥]. فمن يصعد في طبقات الجو العُليا يواجه نقص الأوكسجين، فيشعر بضيق التنفس، وقد يختنق. والقرآن يستعمل هذه التجربة الماديّة ليجعلها رمزًا للضيق الروحي.

وهذا يجعل مفهوم الصحة النفسية في القرآن أقرب إلى «سلام داخلي مرتبط بالمعنى» منه إلى «راحة بيولوجية أو تكيّف اجتماعي». لذلك، لا يكتمل علاج النفس إلا باستعادة المعنى، والعودة إلى ذكر الله، واستعادة معادلة: الروح + الفطرة + التكليف = توازن نفسي.

يعيد هذا الفهم تعريف "الصحة النفسية" نفسه بأنَّها ليست هي القدرة على أداء العمل، ولا التكيّف مع البيئة، وإنّما هي حالة اتساق بين باطن الإنسان ووجهته. فكلّما غاب الاتجاه، حضر الضيق. وكلّما ارتفعت درجة الوعي بالمصدر، اتّسع صدر الإنسان. ومن هنا، نفهم لماذا كان الذكر محرّكَ الطمأنينة، ولماذا كان الإعراض سببًا للضنك، حتى وإنْ توفّرت كلّ أسباب الراحة المادية.

ولهذا، فإنّ كثيرًا من الظواهر التي تُعتبر اليوم أمراضًا نفسية قد تكون – في جانب منها – أعراضًا لغياب الروحانية، لا مجرّد اختلالات كيميائية. وهذه الحقيقة لا تلغي دور العلم الحديث، لكنّها تضعه في مكانه الصحيح، وتمنعه من احتكار تفسير النفس.

سادسًا: الاضطراب النفسي بين العوامل الداخلية والخارجية

لا يَرُدُّ القرآن الاضطراب النفسي إلى سبب واحد، بل يعرض شبكة أسباب تشمل:

- الوسوسة الداخلية: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥].
- العوامل الاجتماعية: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]
- ضغوط الابتلاء: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ [البقرة: ١٥٥]

وهذا التعدّد في الأسباب، يُخرج علم النفس القرآني من ضيق التفسير الواحد الذي يختزل كلّ الظواهر في عامل واحد: إمّا داخلي أو خارجي. فالإنسان في القرآن محاط بعالمين: عالم النفس وعالم التجربة، وكلاهما يترك أثره. ولهذا، فإنّ العلاج لا يكتمل دون النظر إلى العوامل الاجتماعيّة التي قد تُنتج انحرافات جماعيّة في القيم والذوق والسلوك.

وقدّم القرآن مثالاً واضحًا لذلك، حين تحدّث عن "الذين اتّبعوا الذين استكبروا"، ما يكشف عن أثر البنية الاجتماعية في تشكيل النفوس. وهذا يجعل علم النفس القرآني علمًا يستوعب الإنسان فردًا في جماعة، لا فردًا معزولاً.

فيجمع علم النفس القرآني بين الفردي والاجتماعي، بين الروحي والبيولوجي، دون اختزالٍ أو تبسيط.

سابعًا: القرآن علاج نفسي - بين الذكر والتزكية

يبيّن القرآن أثر الذكر في إعادة الاتزان النفسي: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذه الطمأنينة هي حالة يقين، يجد فيها القلب موضعه، ويتحقّق فيها الانسجام بين الداخل والخارج. فالذكر يعيد للنفس مركزها، ويخفّف عنها الضغوط، ويمنحها سكينة لا تتولّد من المحفزات المؤقّتة. ولهذا، ارتبط الذكر في القرآن بالطمأنينة؛ لأنّه يعالج سبب الاضطراب لا نتيجته فقط. وهذه قاعدة نفسية عميقة مفادها أنّ الطمأنينة نتاج اتصال الإنسان بمصدر الوجود.

كما يجعل القرآن التزكية شرطًا لنموّ النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

والتزكية هي إعادة صياغة لوجهة النفس. إنّها تربية شاملة تبدأ من تصحيح الاعتقاد، وتمتد إلى ضبط الرغبات، وتنتهي بانفتاح القلب على النور الإلهي. ومن دون هذا البعد العميق، سيبقى أي علاج سطحيًّا، مهما بدا فعّالاً على المدى القصير.

فالعلاج النفسي القرآني هو بناء الإنسان من داخله. وما لم يتحوّل الخطاب العلاجي إلى مشروع تزكية، سيظلّ العلاج مؤقّتًا ومنقوصًا.

وفي هذا السياق، لا يعود الطبيب أو المعالج مجرّد "مصلح للأعراض"، وإنّما يصبح مربيًا للداخل، ودليلاً في طريق التزكية. وهذا ما يميّز النموذج القرآني عن النماذج المعاصرة التي تفصل بين العلاج والتربية، وتتعامل مع السلوك دون النظر إلى جذوره الروحية.

ثامنًا: نحو تأسيس علم نفس قرآني

نحن نطلق هنا لإعادة بناء العلاقة بين النفس والقرآن، لا بوصف القرآن مصدرًا للنصوص الخُلُقية فحسب، وإنّما مرجعًا معرفيًا لتشخيص النفس وعلاجها، وفهم انفعالاتها، وسلوكها، وتحوّلاتها.

لا يهدف هذا الطموح إلى استبدال العلوم الحديثة أو إنكار منجزاتها، بقدر ما يهدف إلى إعادة ترتيب موقعها ضمن رؤية أوسع، تضع الإنسان في مركز معرفي وروحي، لا يمكن للعلوم المادية وحدها أن تتيحه.

إنّ هدفنا هنا ليس تكرار ما قيل في "الطب الروحي" أو "الإرشاد الديني"، وإنّما بلورة علم نفس قرآني يقوم على مرتكزات:

- تعريف النفس من خلال الفطرة والتسوية الإلهية.
- اكتشاف مدارك النفس عبر مفاهيم الأمّارة واللوّامة والمطمئنّة.
- إعادة صياغة مفهوم الصحة النفسية في ضوء المعنى والغاية.

- بناء نموذج علاجي يستند إلى الذكر والتزكية واستعادة الاتزان الروحي.
- نقد الاختزال المادي للنفس في المدارس الغربية.

تسعى هذه المرتكزات إلى بناء نموذج علاجي وتربوي قادر على مواجهة التحدّيات النفسية المعاصرة — من القلق الوجودي إلى احتراق الإنسان في عصر السرعة — من خلال إعادة الإنسان إلى مركزه الطبيعي؛ أي إلى مركز العبودية لله، ومركز التوازن بين حاجات الروح والجسد.

فحين يُسلب من الإنسان معنى وجوده، يبقى متخبّطًا مهما بلغ من الرفاه المادي؛ وحين يُعاد وصل النفس بالله، تتفتح أبواب الطمأنينة التي لا تُقاس بميزان المختبر، وإنّما تُقاس بميزان القلب. ومن هنا، كانت العودة إلى القرآن استعادة للإنسان نفسه، بوصفه كائنًا يفسد بالانقطاع ويصلح بالصلة، ويتوازن حين يعود إلى مصدره الأول.

تقوم هذه الفلسفة القرآنية على رفض اختزال الإنسان إلى جهاز عصبي منفصل عن قيمه، وتعيد الاعتبار لأهمية الوعي القِيَمي، وعمق التجربة الروحية في تشكيل السلوك.

كما أنّ القرآن يرسم سُنّة تغييرية تنطلق من الداخل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

وهذه السُنّة تؤكّد أنّ النهضة الحضارية تبدأ من عملية بناء الإنسان، ومن تنقية دوافعه، وتصحيح نظرته للعالم، وإعادة توازن علاقته بالله وبالآخرين.

فالانفصال عن مصدر الهدى يجعل النفس نهبًا للتشويش الداخلي، فتفقد ثباتها وتبقى أسيرة الاضطراب مهما جرى تجميل المظاهر.

وإذا كان العالم يشهد ارتفاعًا غير مسبوق في معدّلات الاكتئاب، والانتحار، والقلق، والإدمان، فذلك يفرض علينا التفكير في نموذج علاجي يعيد بناء النفس على أساس القيم والمعنويات. فعلم النفس القرآني إنّما هو مشروع معرفي يريد أنْ يعيد تعريف ماهية الإنسان قبل أنْ يصف أعراضه.

تاسعًا: رؤية بحثية لمجلّة «تبيين» في دعم علم النفس القرآني

إنّ مجلة تبيين، بوصفها منصة علمية متخصّصة في الدراسات القرآنية، تدرك أنّ الحضور القوي للنفس الإنسانية في القرآن هو بنية تأسيسية في فهم الوحي. فالقرآن يخاطب الإنسان من الداخل، ويحرّك قلبه قبل جوارحه، ويقوّم وعيه قبل سلوكه. ومن هنا، نرى أنّ المسؤولية البحثية تفرض توجيه جهد علمي رصين نحو علم النفس القرآني ليأخذ مكانه الطبيعي ضمن حقول المعرفة الإسلامية.

إنّ ما شهده العالم الإسلامي من أزمات نفسية متفاقمة، نتيجة الضغوط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يجعلنا في أمسّ الحاجة إلى رؤى علاجية تنطلق من تصوّرنا القرآني للوجود. فهناك فجوة كبيرة بين ما يُدرّس في كليات علم النفس، وما يحتاجه المجتمع من بناء نفسي يتأسس على قيم الإيمان والسكينة. ولن تُسدّ هذه الفجوة عبر الترقيعات السريعة ولا عبر إسقاط المصطلحات الدينية على نماذج غربية جاهزة، بل عبر مشروع معرفي طويل الأمد، يعيد بناء النظريات النفسية من العمق.

وفي هذا الإطار، تسعى مجلة تبيين في هذا العدد إلى تعزيز ثلاثة مسارات بحثية محورية:

١ - مسار التأصيل القرآني للمفاهيم النفسية

ويشمل دراسة المصطلحات القرآنية الأساسية مثل: النفس، والقلب، والصدر، والفطرة، والطمأنينة، والرجاء، والخوف، والصبر، وسواها، وربطها بسياقاتها النصّية والوجودية، وتفسير أدوارها في بناء شخصية المؤمن وتهذيب سلوكه.

٢ - مسار التفاعل النقدي مع علم النفس الحديث

ليس رفضًا قاطعًا ولا قبولاً مطلقًا، وإنما تفكيك علميٌّ لما يتوافق مع الرؤية القرآنية والاستفادة

منه، ونقدًا لما ينفصل عن حقيقة الإنسان ومركزية المعنى في حياته، خاصّة تلك المقاربات التي اختزلت الإنسان إلى وظائف عصبية أو وحدات استهلاكية.

٣. مسار التطبيقات العملية في العلاج النفسي والإرشاد الروحي

وذلك عبر تطوير نماذج علاجية تستلهم القرآن في مواجهة الاضطرابات النفسية الشائعة اليوم، كالقلق والاكتئاب، والإدمان، وتقدّم حلولاً عملية متوافقة مع قيم المجتمع الإسلامي وهويته.

وترى المجلّة أنّ هذا المشروع لا يتحقق بذهنية ردّ الفعل، ولا عبر استيراد نظريات معلّبة وتجميلها بالآيات، وإنّما عبر تفعيل شراكة بحثية حقيقية بين المتخصّصين في التفسير وعلوم القرآن من جهة، والمتخصّصين في علم النفس والإرشاد من جهة أخرى. فالرؤية القرآنية تملك العمق القيمي، والعلوم النفسية تملك أدوات التشخيص والتطبيق، والتكامل بينهما هو ما يصنع علمًا قادرًا على التأثير في الواقع.

كما تؤكّد المجلّة أنّ علم النفس القرآني هو واجب حضاري؛ لأنّ الأمّة التي تتخلّى عن فهم الإنسان كما يقدّمه القرآن تفقد قدرتها على بناء أبناء أحرار أقوياء يحملون رسالة نحو المستقبل. إنّ إنتاج معرفة نفسية تحترم الإنسان وتنتصر لقيمته ضرورة خُلُقية قبل أن تكون خيارًا بحثيًّا.

وإذ تقدّم مجلّة تبيين هذا العدد، فهي تطمح أن يشكّل خطوة رائدة في مسار طويل يعيد إلى النفس صوتها القرآني، ويجعل من البحث العلمي جسرًا بين النص ووظائفه الحيّة في العالم.

لا يرفض هذا المشروع العلم، بل يستوعبه ضمن رؤية أشمل تحمي الإنسان من السقوط في العبث أو الاستلاب. فحين تتعطّل المرجعية الإلهية، يصبح الإنسان متروكًا لفراغه، وتتحوّل حرّيته إلى فوضى، ويغدو تقدّمه المادّي طغيانًا على ذاته. أما حين يتذكّر غايته، تبنى النفس على نور، وتتحوّل المعاناة إلى طريق للارتقاء، ويصبح الابتلاء جزءًا من التهذيب والوعي.

من هنا، يأتي تخصيص مجلة تبيين هذا العدد لعلم النفس القرآني من موقع الشعور بالمسؤولية العلمية تجاه الإنسان الذي يتعرّض اليوم لضغوط غير مسبوقة على مستوى الهوية والتماسك الداخلي. فنحن أمام حاجة ملحّة إلى رؤية قرآنية تعيد للنفس مكانتها، وتجمع بين المعرفة القلبية والعقلية، وتفتح أبواب البحث على أسئلة الحياة العميقة. رؤية تجعل القرآن مصدرًا لتأصيل علمي منهجي قادر على الإسهام في صناعة شفاء حقيقي يبدأ من الداخل، ولا يكتفي بتخفيف الأعراض السطحية.

فالإنسان الذي كرّمه الله يستحقّ علمًا يليق بكرامته. والنفس التي أقسم الله بها في سورة الشمس، تستحقّ أن تُدرس في أعلى مراتب النور التي خُلقت لها. والقرآن الذي وصفه الله بأنه شفاء، يحمل في كل آية منه وعدًا بأنّ طريق الخلاص يبدأ من الداخل: من تلك اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أنّ السكينة حقيقة تتحقق حين يتصل القلب بمصدره.

بهذه الروح، يقدّم هذا العدد من مجلة تبيين مساهمته في مشروع حضاري يحتاج إلى تراكم، ويستدعي شراكة علمية راشدة. راجين من الله أن يجعل أبحاثه لبنة في بناء علم نفس يُنصف الإنسان ويحفظ روحه ويعيد إليه نور فطرته.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن أبحاث هذا العدد قد جاءت على الشكل الآتي:

حيثُ تناولت دراساتُ المحورِ: «نحو علم نفس قرآني الأصول والمفاهيم والوظائف النفسية»، و«المنهجية القرآنية في التزكية المتوازنة للنفس الإنسانية»، و«مؤشّرات الصحّة النفسيّة في سورة (لقمان): مقارنة مع نظريّة (كارل روجرز) ذات النزعة الإنسانيّة»، و«ذكرُ الله ودَورُه في الصِّحةِ النّفسيَّة وطُمأنينةِ القَلْب».

أمَّا بابُ الدراساتِ والبحوثِ القرآنيَّةِ، فقد خُصِّصَ لنقد أسس الدراسات القرآنيّة لـ (أندرو ريبين)، و«دور مُعلّم التربية الإسلامية في تعزيز جهاد التبيين لدى المراهقين على ضوء القرآن والسُنّة النبويّة»، مضافًا إلى قراءةٍ في كتاب: «الإسلام وعلم النفس».

نَرجو أن تُسهِمَ هذه الدراساتُ والبحوثُ والمقالاتُ في الكشفِ عن الرؤيةِ القرآنيَّةِ للنفس الإنسانيّة والصحة النفسية، وإنَّنا إذ نأملُ أن يُعجبَ هذا العددُ القُرَّاءَ الأعزَّاءَ، وأن يغضُّوا الطَّرفَ عن أيِّ تقصيرٍ، فإنَّنا ندعو اللهَ أن يُوفِّقَ هذه الأُمَّةَ لما يُحبُّ ويرضى، وأن يَهدِيَها إلى الصِّراطِ المستقيمِ.

والله الموفق إلى سواء السبيل.